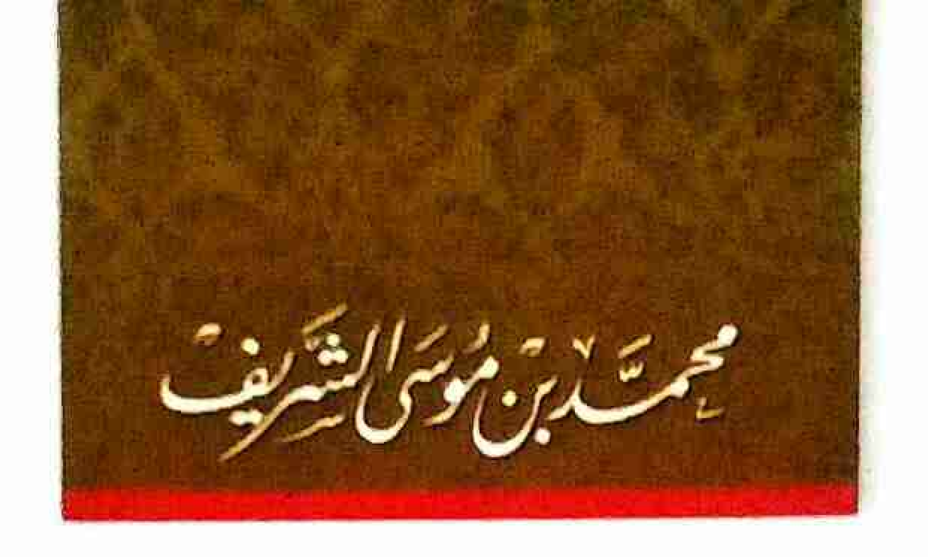


محمد بن موسى الشريف

نماذج تاريخية ومعاصرة

من مآسي الافتراق

وأثر ذلك على الأمة

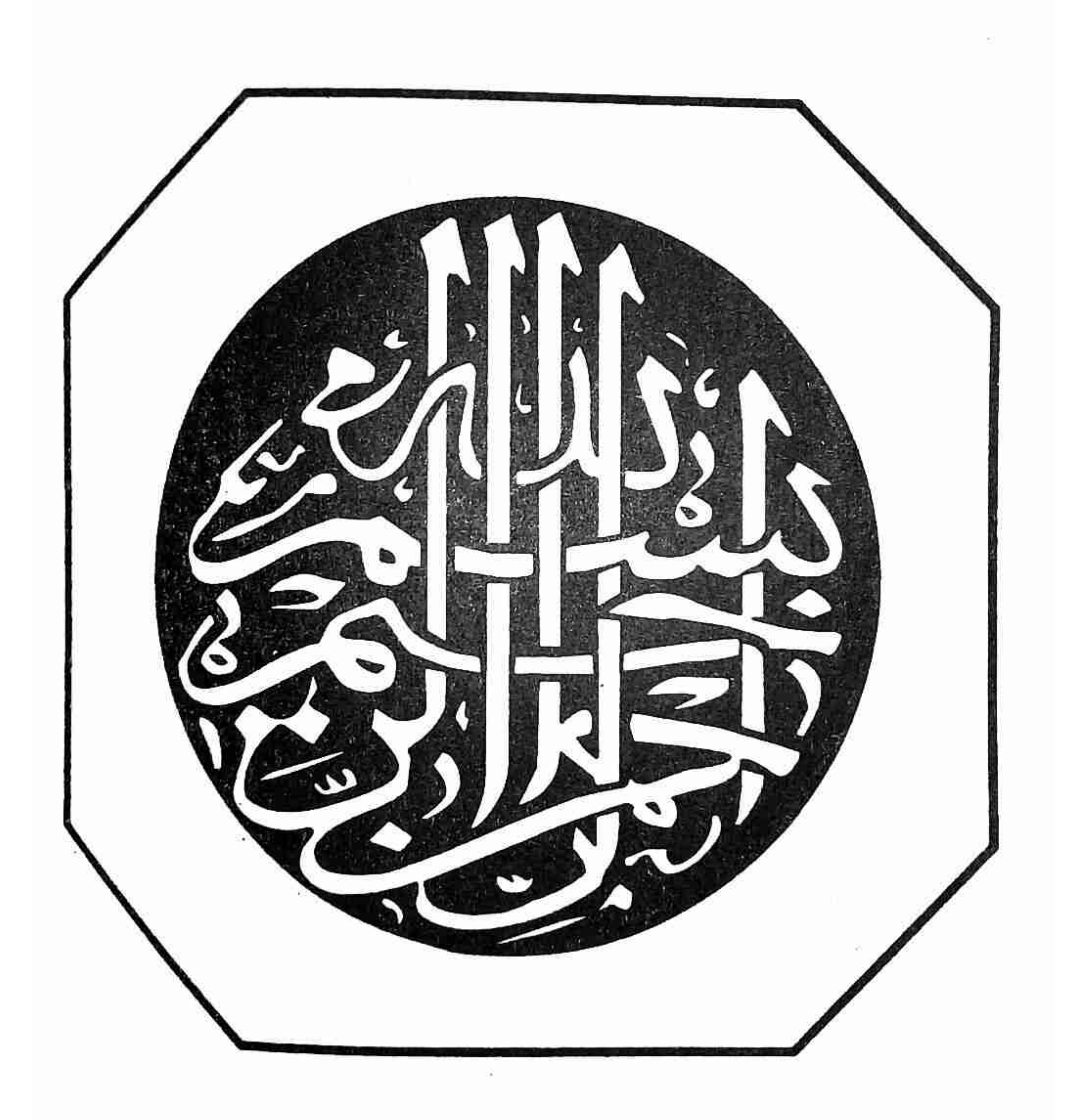


دار الأندلس الخضراء　　دار ابن حزم

نماذج تاريخية ومعاصرة

من مآسي الافتراق

وأثر ذلك على الأمة


بسم الله الرحمن الرحيم

نماذج تاريخية ومعاصرة

من مآسي الافتراق

وأثر ذلك على الأمة

بقلم

محمد موسى الشريف

دار ابن حزم

دار الأندلس الخضراء

الطبعة الثانية

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

دار الأندلس الخضراء



جدة / هاتف: ٠٢/٦٨١٠٥٧٧
/ فاكس: ٠٢/٦٨١٠٥٧٨
الرياض / هاتف: ٠١/٢٤٨١٧٠٥
/ فاكس: ٠١/٢٤٨١٩٠٥
التوزيع / ٠٥٥٤٤٨١٩٠٥ - ٠٥٤٤٠٤١٠١٢



المكتبات: حي السلامة
هاتف - فاكس: ٦٨٢٥١٠٩
حي الثغر - شارع باخشب
هاتف ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس ٦٨١٠٥٧٨



البريد الإلكتروني
alandalos1@gawab.com
ص.ب: ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١

دار ابن حزم

بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366

هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)

البريد الإلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني: www.daribnhazm.com

قال الله تعالى:

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾.

وقال ﷺ:

«وكونوا عباد الله إخواناً»

وقال ﷺ:

«إن أبغض الرجال عند الله الألد الخصم»

وقال ابن قتيبة:

«إني والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين، ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب من الخصومة».

قال الشاعر:

كونوا جميعاً يابني إذا اعترى ... خطب ولا تَفرّقوا آحاداً

تأبى العصي إذا اجتمعن تكسراً ... وإذا افترقن تكسرت أفراداً

مقدمة[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن قضية الافتراق قضية مزعجة مؤرقة، مؤلمة مقلقة، وذلك لأنها تفصم العروة الوثقى، وتهدم الآمال العظمى، وتبعد النصر، وتزيد القهر، والافتراق مرض مهلك، ومسلك مربك، نهى عنه الشارع في الكتاب الكريم والسنة الشريفة المطهرة المكملة للتنزيل، والتاريخ شاهد على ذلك وبإيضاحه كفيل، وقد كثرت الكتابات التي تتحدث عن الافتراق ومحاذيره، ومشكلاته وعواقبه، وقد ذكر علماء المسلمين من القواعد الضابطة، والإشارات الهادية، للتخلص من هذه المشكلات وتجاوز تلك العقبات وضبط هذه المسالة ما يملأ رَف مكتبة!! لكن أين المستجيب؟؟ لذلك سأسلك في هذه الرسالة مسلكاً آخر عملياً؛ وهو أن أذكر الوقائع التاريخية المعاصرة التي ابتلينا فيها بالافتراق، وترتب على ذلك مآسٍ محزنة، فلعل سوق تلك الأحداث يُوقظ الضمائر، ويهز المشاعر، ويلهب النفوس، ويشد العزائم حتى نخرج من هذا التيه، ونفارق هذا الطريق المعوج.

---

(١) أصل هذه الرسالة بحث ألقيته في مؤتمر: العمل الإسلامي بين الاتفاق والافتراق الذي انعقد في السودان يوم ٢٣-١٤٢٥/٥/٢٥، ١٠-٢٠٠٤/٧/١٢.

وأوردت بعض ما وقفت عليه من هذه الوقائع مرتباً مهذباً واستثنيت ما جرى بين الصحابة، وما وقع لتلك العصابة رضي الله عنها وأرضاها؛ وذلك لأن الكف عما شجر بينها من أصول الدين، والسكوت عما حصل منهم في الفتنة من الكمال المتين، وهذا من طريقة السلف الكرام ألا يخوضوا فيما حدث بين أولئك العظام، أما من دونهم فقد ذكرت لهم وقائع وأحداثاً، وطرائق وأفعالاً تبين شؤم الافتراق، وتنفر من تبعات نتائجه، لعله أن يهتدي بها أولو الألباب، ويرتدع بها سالكوا هذه المسالك الصعاب.

هذا وقد قسمت البحث إلى أربعة مباحث وذيلت بخاتمة فيها النتائج والتوصيات، والمباحث هي:

المبحث الأول: المآسي المترتبة على الخلاف المذهبي الفقهي.

المبحث الثاني: المآسي المترتبة على الخلاف العقدي.

المبحث الثالث: المآسي المترتبة على الفرقة في العصر الحديث من القسمين السابقين.

المبحث الرابع: المآسي المترتبة على الفرقة السياسية.

والله تعالى أسأل التوفيق من الزلل، وإن كان من خطأ فمني ومن الشيطان، وإن كان من صواب فمن الله العظيم، وبه أستعين،

وبحبله أستمسك فهو متين، وصلوات ربي على المختار من كنانة والمبعوث من تهامة، ومن له الفخر والعز آية وعلامة، وآله الأطهار، وأصحابه الأبرار، وتابعيهم إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

البريد الألكتروني mmalshareef@yahoo.com

الموقع على الشبكة www.altareekh.com

المبحث الأول

المآسي المترتبة على الخلاف المذهبي الفقهي

من رحمة الله تعالى بالأمة أن نوع أفهام علمائها، وفاوت بين مداركهم، ففهم هذا من النص ما لم يفهم ذاك، وصحح هذا شيئاً لم يصححه ذاك، وكان خلافهم في الجملة رحمة، ودلالة على سعة هذه الشريعة، وكمال هذه الطريقة، وأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وأنه الدين الحق بين الأديان، فمهما اختلف العلماء فهم يرجعون إلى أصل واحد ويستمسكون بعروة وثيقة، وعلى هذا مضى الصدر الأول رضي الله عنهم في المسائل الفقهية والخلافات الفرعية المذهبية، فقد اختلفوا ولكن لم يتركوا الوئام، وتنوعت أفهامهم وفتاواهم وما تفرقت منهم القلوب وما مسهم من الخلاف سقام، وكان كلٌ من كبارهم يمثل اتجاهاً في الاستنباط والتفكير تحول فيما بعد إلى مدرسة لها أتباع وتنظير، فابن عباس له اتجاه، وابن عمر له مسلك آخر، وابن مسعود له طريق ثالثة، وغيرهم رضي الله عنهم سلك مسالك أخرى، ولم يعب واحد منهم الآخر، ورضي كلٌ بما قسم له من الفهم والاستنباط، وهذا هو المسلك الحميد والرأي السديد، وكان خلافهم لنا توسعة وبنا

رحمة، وعلينا بركة كما قال القاسم بن محمد بن أبي بكر رحمه الله وهو أحد فقهاء المدينة السبعة: «اختلاف الصحابة رحمة»[1]، ثم ما برح الخلاف يفقد آدابه، ويتنكب الطرق السليمة حتى صار علينا عيباً، وبنا شيناً، وأصبح مؤدياً للافتراق، جالباً للبغضاء، محركاً لإحن الصدور، ذاهباً بألباب ذوي العقول، ولا أدري والله ماذا أقول.

وللتاريخ البعيد والقريب شواهد على ما تردى إليه أمر الخلاف المذهبي ومآسٍ كثيرة مسطورة، وأفعال مكتوبة منكورة، لم نراع فيها الخلاف، ولم نرتق فيها إلى مرتبة الأخوة التي عبر عنها الشافعي الإمام بقولة رائعة، فعن يونس الصدفي — وهو أحد أئمة المصريين وعقلائهم — قال:

«ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال يا أبا موسى: ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة»[2].

وقال الإمام الذهبي تعليقاً على هذا الكلام النفيس: هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون.

---

(١) «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ٢/ ٥٧٩، والسير من تأليف الحافظ الذهبي، رحمه الله تعالى. والنزهة لواضع هذا البحث، نشر دار الأندلس الخضراء، جدة.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٨٤٦..

ومن الأمثلة على الخلاف الذي لم يراع فيه الأدب، وجانب الصواب ولازمه الغضب ما يلي:

- لما دخل الشافعي مصر أتاه أصحاب مالك مقبلين هاشين، لأنه كان تلميذ مالك ولم يظنوا أنه يخالف مالكاً في شيء!! فلما رأوه مستقل الفكر، واسع العلم، يخالف مالكاً في أشياء جفوه!! وتنكروا له!! بل أن العالم الكبير أشهب بن عبدالعزيز المالكي المصري كان يقول في سجوده:

اللهم أمت الشافعي؛ لا يذهب علم مالك!![1].

وهذه إحدى العجائب والغرائب الدالة على ضيق الصدر بالخلاف وعدم تقبل الرأي الآخر.

- وهذا بَقيّ بن مَخْلَد العالم الأندلسي الكبير المتوفى سنة ٢٧٦ رحمه الله تعالى كان قد أخذ الحديث من المشرق ودخل به الأندلس ونشره نشراً عظيماً وهاجم به شيوخ الأندلس، فثاروا عليه، لأن علمهم إنما كان بمسائل مالك، وكان بقي يفتي بالأثر فخالفهم في الفتيا مخالفة عظيمة، فعقدوا له المجالس، وبدّعوه، ونسبوه إلى الزندقة، وإلى أشياء أخرى[2]، وكان ذلك في حقه

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٨٥١/٢.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١٠٨٦/٢.

مخالفة تامة لآداب الخلاف، وبعداً كاملاً عن الوئام والوفاق الذي ينبغي أن يكون في مثل هذه الأحوال، ومن قرأ سيرته عرف عظم أحواله وبراءته مما نُسب إليه.

- وهذا الخلاف بين الحنفية و الشافعية، الذي كان له صور كثيرة من أشدها على النفوس وأمرها ما ذكره ياقوت الحموي صاحب كتاب «معجم البلدان» الشهير حيث تكلم فيه عن مدينة أصفهان وذكر مجدها القديم ثم قال:

«وقد فشا فيها الخراب في نواحيها لكثرة الفتن، والتعصب بين الشافعية والحنفية والحروب المتصلة بين الحزبين، فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى، وأحرقتها وخربتها لا يأخذهم في ذلك إلّ ولاذمة، وكذلك الأمر في رساتيقها وقراها»[1] وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقال عن الري بعد مروره بها سنة ٦١٧ ومشاهدته خرابها:

«ووقعت العصبية بين الحنفية والشافعية، ووقعت الحروب بينهم، كان الظفر في جميعها للشافعية؛ هذا مع قلة عدد الشافعية، وكان أهل الرستاق – وهم الحنفية – يجيئون إلى البلد

---

(١) «تحاسد العلماء» لعبدالله بن حسين الوجان: ٢٥٠-٢٥١ نقلاً عن معجم البلدان ١/ ٢٧٣ طبعة الخانجي.والرستاق.

بالسلاح الشاكي[1] ويساعدون أهل نحلتهم فلم يغنهم ذلك شيئاً حتى أفنوهم...»[2] !!!

ولا أريد أن أذكر أكثر من هذا، فحسبك به دلالة على شؤم الافتراق، وأثره البالغ في إضعاف الأمة وإذهاب ريحها، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وما أحسن كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حيث قال:

«وقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه، لتفاوت إرادتهم وإفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكل من المختلفين كان قصده طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية»[3].

ولو راعى من ذكرتهم آنفاً وغيرهم ما ذكره الإمام لما اختلفوا هذا الاختلاف المهلك، ولما وصل بهم شؤم الخلاف إلى قتل بعضهم بعضاً.

---

(١) أي تامّي السلاح..

(٢) المصدر السابق: نقلاً عن «معجم البلدان»: ٤/٣٥٥.

(٣) «الصواعق المرسلة»: ٢/٥١٩.

المبحث الثاني

المآسي المترتبة على الخلاف العقدي

وهذا الافتراق هو الأقسى والأقوى أثراً، وهو الأنكى في الأمة، وينقسم إلى افتراق عقدي بين أهل السنة أنفسهم، وافتراق بين أهل السنة وغيرهم من طوائف وفرق المسلمين، والافتراق في القسم الأول أصعب على النفس وأشد وأقسى؛ وذلك أن أهل السنة كان ينبغي لهم أن يكونوا يداً واحدة على من سواهم، فلما حصلت هذه الفرقة أدت إلى تمزق في الصف، وانقسام في الجبهة الواحدة، وتجرأ عليهم غيرهم من أعدائهم وخصومهم وضعفت الأمة تبعاً لذلك.

ومن أمثلة القسم الأول - أي الفرقة بين أهل السنة أنفسهم - مايلي:

١- الخلاف بين الحنابلة والأشاعرة[1]:

(١) لا يرضى بعض الناس بإدراج الأشاعرة في أهل السنة بدعوى مخالفتهم في بعض أصول العقائد، وأقول: إن هذه المخالفة لا تخرجهم أبداً من كونهم من أهل السنة، وأنا لا أرتضي ما ذهبوا إليه من تأويل بعض الصفات لكني لا أرى انهم فارقوا بسبب خطئهم هذا أهل السنة، وليت شعري كيف نخرج هذا العدد الضخم من علماء الأمة ومشايخها وفضلائها وكبرائها من أهل السنة بسبب مخالفة؟! هذا ولهم أياد بيضاء عظيمة على العلم وأهله، وكم =

وهذا أدى إلى تصدع مريع، وخلاف طويل، بل أدى إلى فرقة خطيرة تركت أسوأ الآثار في المجتمع المسلم، ومن أمثلة ذلك:

ما حصل للإمام الكبير أبي نُعيم الأصبهاني؛ أحمد بن عبدالله، الثقة، شيخ الإسلام المتوفى سنة ٤٣٠ والذي كان من حفاظ الدنيا، فقد هجر بسبب المذهب، وقام إنسان مرة في مجلس تحديث يعلن عن مجلس أبي نعيم الأصبهاني فقام إليه أصحاب الحديث بسكاكين الأقلام وكاد الرجل يقتل!![1].

وصدق الذهبي حين علق على الحادثة قائلاً:

«ما هؤلاء بأصحاب الحديث، بل فجرة جهلة، أبعد الله شرهم»[2].

وقال الذهبي:

«كان بين الأشعرية والحنابلة تعصب زائد يؤدي إلى فتنة، وقيل وقال، وصداع طويل»[3].

= ذبوا عن الإسلام ورفعوا رايته، وواجهوا أهل البدع والضلال فإخراجهم من أهل السنة ليس عليه دليل قوي ولا استدلال عقلي مُرْضٍ، والله أعلم.

(١) «نزهة الفضلاء»: ١٣٤٩/٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وهذا العالم العلامة الأصولي شيخ القراء أبوعبدالله محمد بن عتيق التميمي القيرواني المعروف بابن كُدِّية الذي كان متعصباً لمذهب الأشعري، جرت بينه وبين الحنابلة فتن وأوذي غاية الإيذاء»[1].

وهذا العالم الواعظ أبو بكر عتيق البكري المغربي الأشعري، المتوفى سنة ٤٧٦ كان قد قدم بغداد، فجلس الناس إليه وامتلأ المجلس، فذكر الحنابلة وحط عليهم، وبالغ، ونبزهم بالتجسيم، فهاجت الفتنة، وكفر هؤلاء هؤلاء، والطريف أنه لما عزم البكري على التحديث بجامع المنصور قال نقيب النقباء: قفوا حتى أنقل أهلي فلا بد من قتل ونهب!! ثم أغلقت أبواب الجامع، وصعد البكريّ وحوله الأتراك بالقسيّ!! إلى آخر القصة المحزنة[2].

ومن الأمثلة أيضاً على الخلاف بين أهل السنة ما وقع بين أبي نصر عبدالرحيم بن عبدالكريم بن هوازن القشيري الأشعري – وهو ابن الإمام أبي القاسم القشيري، المتوفى سنة ٥١٤ رحمه الله تعالى – وبين الحنابلة، فقد ورد بغداد سنة ٤٦٩، وجلس في المدرسة النظامية، وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم، ومال لنصرته الإمام أبو إسحاق الشيرازي وجماعة، فوقعت الفتنة، وقتل أناس

---

(١) المصدر السابق: ١٤٩٥/٤.

(١) المصدر السابق: ١٤٤٢/٣٠.

وجرح آخرون !!وحصلت مأساة انتهت بتسكين الفريقين وإخراج القشيري من بغداد إلى نيسابور(١).

ومن المآسي الكبيرة ما وقع لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي الأنصاري الحنبلي عبدالله بن محمد بن علي حيث قدم السلطان الكبير السلجوقي ألب أرسلان إلى هراة -بأفغانستان الآن- فاجتمع عنده مشايخ البلد ورؤساؤه، وحدثوه أن الأنصاري مجسم وأنه يعبد صنماً يزعم أن الله تعالى على صورته -وكانوا قد تمالأوا على وضع صنم في قبلة محراب أبي إسماعيل في داره!!- فبعث السلطان جماعة إلى دار أبي إسماعيل استخرجوا الصنم من قبلة محرابه، وكان صنماً صغيراً من نحاس دسوه تحت سجادته، فغضب السلطان غضباً عظيماً وأحضر أبا إسماعيل وواجهه قائلاً: ما هذا؟! قال: هذا صنم يعمل من الصُفْر شبه اللعبة. فقال: لست عن هذا أسألك. فقال: عن ماذا يسأل السلطان ؟! قال: إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا الصنم، وانك تقول إن الله على صورته، فقال الأنصاري: سبحانك هذا بهتان عظيم، بصوت جَهْوري وصولة، فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه، فأمر به فأخرج إلى داره مكرماً، وقال لهم: اصدقوني القصة أو أفعل بكم وأفعل، وذكر

---

(١) «تحاسد العلماء»: ٢٧٣ وما بعدها، نقلاً عن «ذيل طبقات الحنابلة»: ١٩-٢٣.

تهديداً عظيماً، فقالوا: نحن في يد هذا الرجل في بليّة من استيلائه علينا بالعامة وأردنا أن نقطع شره عنا، فصرفهم السلطان إلى منازلهم بعد إهانتهم وأخذ غرامة منهم مبلغاً عظيماً من المال يؤدي إلى خزانة السلطان عقاباً لهم على جنايتهم[(١)].

وفي ذلك الخلاف وتلك الفرقة يقول الإمام الذهبي رحمه الله:

«ينبغي للمسلم أن يستعيذ من الفتن، ولا يَشْغب بذكر غريب المذاهب لا في الأصول ولا في الفروع، فما رأيت الحركة في ذلك تحصل خيراً، بل تثير شراً وعداوة ومقتاً للصلحاء والعباد من الفريقين، فتمسك بالسنة، والزم الصمت، ولا تخض فيما لا يعنيك، وما أشكل عليك فرده إلى الله ورسوله، وقف وقل: الله ورسوله أعلم»[(٢)].

وهذا نص ثمين يلخص فيه الذهبي الآثار السيئة للخلاف والافتراق، ويذكر العلاج الناجح.

٢- الخلاف بين أهل الحديث:

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما جرى بين الإمام البخاري رحمه الله تعالى وبعض علماء عصره وعلى رأسهم الإمام محمد بن يحيى الذُهْليّ

(١) «تحاسد العلماء»: ٤٨٩-٤٩٠.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١٥٣٨/٤.

الذي حسد الإمام البخاري على اجتماع الناس عليه، واتهمه بالقول بمسألة: لفظي بالقرآن مخلوق –وهي مسألة دقيقة، أُخذ بها البخاريّ بغير وجه حق– وهذا أحد تلاميذ البخاري يقول له: يا أباعبدالله أيش الحيلة لنا فيما بينك وبين محمد بن يحيى؟! كل من يختلف إليك يطرد، فقال البخاري رحمه الله تعالى: كم يعتري محمد بن يحيى الحسد في العلم، والعلم رزق الله يعطيه من يشاء. فقال له التلميذ: هذه المسألة التي تحكى عنك؟ قال: يا بني هذه مسالة مشؤومة، رأيت أحمد بن حنبل، وما ناله في هذه المسالة، وجعلت على نفسي ألاّ أتكلم فيها.

ثم انتهى بالبخاري الأمر إلى أن أخرج من نيسابور ولم يشيعه إلا واحد فقط !!![1] ومات غريباً وحيداً رحمه الله تعالى، ألا قبح الله الفرقة والاختلاف.

وما أحسن الذهبي عندما قال:

«السكوت عن توسع العبارات أسلم للإنسان»[2].

٣- الخلاف في العصر الحديث:

وهو بلاء وأي بلاء؛ إذ في الوقت الذي يجتمع فيه أعداء الإسلام على حربه وتحطيمه نجد بين صفوفنا من يساهم في تلك

---

(١) المصدر السابق: ١٠١٧/٣.

(٢) المصدر السابق: ١٢٥٣/٣.

الحروب ويؤجج نارها ويعظم شررها ، ولعلي أقتصر في ذكر الطعن العقديّ في العصر الحديث على مثال واحد وهو الأستاذ حسن البنا -رحمه الله تعالى- حيث إن بعض من زعم أنه يريد الحق ويرد الباطل قام بالتشنيع على هذا الأستاذ الذي ما سمح الزمان بمثله في مجموع خصاله وآثاره في العصر الحديث فصار ينال منه ويتهم عقيدته اتهاماً عجيباً باطلاً ، والناظر إلى تلك الأقوال يعلم بطلانها لكني أردت بالوقوف عليها بيان حجم المأساة التي أوصلنا أنفسنا بأيدينا إليها :

هذا الرجل قد وجهت إليه سهام مغرضة واتهم في عقيدته بغير حق ، كيف لا وهو القائل : «العقيدة أساس العمل»[1].

وهو القائل أيضاً : «ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني[2] إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع حسماً لمادة التأويل والتعطيل فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان وأثلج صدره برد اليقين فلا تعدل به بديلاً ...»[3] فماذا بعد هذا يا عباد الله.

(١) «رسائل الإمام البنا» : ٢٧٠.

(٢) أي العلم بكيفيتها وليس بمعانيها كما ذهب إليه بعض المغرضين في اتهاماتهم.

(٣) «رسائل الإمام البنا» : ٣٣٠.

وقد قال أيضاً: «وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من المتشابه نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل»[(١)].

وقال أيضاً وكل بدعة في دين الله لا أصل لها -استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو النقص منه- ضلالة تجب محاربتها...»[(٢)].

وقال أيضاً لكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا، ونداءهم لذلك وطلب الحاجات منهم عن قرب أو بعد، والنذر لهم، وتشييد القبور، وإضاءتها، والتمسح بها، والحلف بغير الله، وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة»[(٣)].

وهذا اتهام آخر عجيب لا أدري وجهه، يقول فيه صاحبه ناعياً على البنا دعوته للجهاد:

«قلنا: أي جهاد الذي دعا إليه البنا إذا كان قد أقر الشرك الأكبر المخرج من الملة»[(٤)].

كيف لعاقل أن يصدق أن البنا أقر الشرك الأكبر؟! إن هذا لشيء عجيب!.

---

(١) المصدر السابق: ٢٦٩.

(٢) المصدر السابق: ٢٧٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) «المورد العذب الزلال»: ١٤٣.

ثم يتهم البنا بأنه صوفيّ وأنه بهذا قد ثُلم توحيده، وأتى ببعض ما ظنه شواهد على هذا !!

هذا ولقد انبرى شيخ فاضل[1] للدفاع عن البنا فقال لهذا المتهم:

«فأنا أنصحك أيها الشيخ أن تصون لسانك وقلمك عن الوقيعة في هذا الداعية الذي نفع الله به».

فما كان منه إلا أن شن عليه غارة عظيمة، وعدّه صاداً عن سبيل الله بهذه النصيحة، وعدّه خاذلاً للحق، متظاهراً مع أهل الباطل، ثم اتهمه بأنه بدفاعه عن البنا قد خدش توحيده!!! وقدح فيه، وأمره بالتوبة، ثم أفحش القول في البنا باتهامه أنه فعل الشرك الأكبر وأقر فاعليه عليه[2].

وكل تلك الغارة الهائلة بسبب أمور في التصوف ابتدأ بها البنا حياته مثل الكثرة الكاثرة من صالحي العالم الإسلامي الذين يحيط بهم التصوف من كل جوانبهم[3]، لكن هذا المتهم لم ينظر في أقوال

---

(١) هو الشيخ عبدالله بن جبرين حفظه الله تعالى.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر لفهم هذه المسألة بالتفصيل وإعذار من نشأ في العالم الإسلامي محاطاً به التصوف = من كل جانب سبيلاً أوحد في كثير من الأحيان خاصة في زمن البنا وقبله، انظر كتاب «العاطفة الإيمانية وأهميتها في الأعمال الإسلامية» لواضع هذه الرسالة ص ٧٦-٩٥.

البنا في الصوفية حيث قال بعد كلام عن الصوفية الأولى مادحاً لها- كما مدحها شيخا الإسلام من قبل: ابن تيمية وابن القيم — :

«لكن فكرة الدعوة الصوفية لم تقف عند حدود علم السلوك والتربية، ولو وقفت عند هذا الحد لكان خيراً لها وللناس، ولكنها جاوزت ذلك بعد العصور الأولى إلى تحليل الأذواق والمواجد، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها، فخلطت بذلك الدين بما ليس منه، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأي والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوف والدعوة إلى الزهد والتقشف...وأصبح كل ما يكتب أو يقال في هذه الناحية يجب أن يكون محل نظر دقيق من الناظرين في دين الله والحريصين على صفائه ونقائه...».

فهل بعد هذا الإيضاح والبيان مزيد؟!

وفي النهاية أقرر أن البنا ليس بمعصوم، وأنه قد أخطأ في أقوال وأعمال، لكن ذلك الخطأ لا يخرجه عن كونه قدوة يُقتدى بها وعلماً من أعلام الإسلام في العصر الحديث، والله تعالى أعلم[1].

---

(١) قد زكى الشيخ عدد من أئمة السلفيين في العصر الحديث مثل الشيخ ابن جبرين كما مر سابقاً، ومثل الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي الذي أهدى إليه كتابين له: «تنزيه =

وأظن – والله تعالى أعلم – أنه لو جمعت جهود الإخوان والسلفيين وصُبت في بوتقة واحدة لتغير وجه التاريخ في العصر الحديث، ولما استطاع أعداؤنا أن يتجرأوا علينا كما هو حاصل اليوم، لكن كان الذي خاف الصالحون أن يكون، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

= الدين وحملته مما افتراه القصيمي في أغلاله» و «القواعد الحسان لتفسير القرآن» وكتب عليه: إهداء إلى فضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا، وغيرهما من الرجال المنصفين.

القسم الثاني: الفرقة بين أهل السنة ومن سواهم، ومن أمثلة ذلك الخلاف:

١- الخلاف بين أهل السنة والخوارج:

وهو خلاف حاد وصعب، أدى إلى نتائج وخيمة أوجزها في الآتي:

أ- سفك الدماء:

كان الخوارج يقدمون على سفك الدماء على وجه عجيب لا يراعون فيه حرمة ولا سابقة لأحد، ونتج عن صنيعهم هذا مقتل عشرات الآلاف من المسلمين على مدار تاريخهم منهم سادة كرام نجباء مثل الخليفة الراشد عثمان بن عفان والخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، وتاريخهم معروف في هذا لكن سأذكر حادثة واحدة يتبين منها إقدامهم على الدماء بلا مبرر، فقد التقى الخوارج في طريقهم إلى النهروان برجل رأوه يهرب منهم، فأحاطوا به وقالوا له: من أنت؟ قال أنا عبدالله بن خباب بن الأرت –ابن الصحابي المشهور– فقالوا له حدثنا حديثاً سمعته عن أبيك عن رسول الله ﷺ، فقال سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ «ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من

الساعي ، فمن استطاع أن يكون فيها مقتولاً فلا يكونن قاتلاً». فشد عليه رجل من الخوارج بسيفه فقتله ، فجرى دمه فوق ماء النهر ، ثم إنهم دخلوا منزله –وكان في القرية التي قتلوه فيها على بابها– فقتلوا ولده وجاريته أم ولده[1] ، والعياذ بالله من قسوة القلوب.

ب- تكفير المسلمين:

وهو أمر عظيم أقدم عليه الخوارج ، وهم أول من ابتدأ القول به في هذه الأمة ، فكفروا سادات المسلمين وعلماءهم بل كفروا جملة من الصحابة رضي الله عنهم :

«كان دينهم إكفار علي وعثمان ، وأصحاب الجمل ، ومعاوية وأصحابه ، والحكمين ومن رضي بالتحكيم ، وإكفار كل ذي ذنب ومعصية».

واشتد غلوّ فرقة الأزارقة من الخوارج حتى قالت باستباحة قتل نساء مخالفيهم وقتل أطفالهم ، وزعموا أن الأطفال مشركون ، وقطعوا بأن أطفال مخالفيهم مخلدون في النار»[2].

---

(١) «الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية» للشيخ عبدالقاهر البغدادي : ٥٧ ، والحديث في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) المصدر السابق : ٦١.

جـ - إثارة الفتن:

إذ كم من فتنة كان لهم قصب السبق في إشعالها ، وكم انقاد خلفهم من علماء لقوا حتفهم بسبب متابعتهم إياهم ، ومثال ذلك فتنة عبدالرحمن بن الأشعث فقد قال الذهبي الإمام رحمه الله تعالى :

«الأمير، متولي سجستان ...بعثه الحجاج على سجستان فثار هناك ، وأقبل في جمع كبير ، وقام معه علماء وصلحاء لله تعالى لِما انتهك الحجاج من إماتة وقت الصلاة ولجوره وجبروته ، فقاتله الحجاج ، وجرى بينهما عدة مصافات وينتصر ابن الأشعث ، ودامت الحرب أشهراً ، وقتل خلق من الفريقين ، وفي آخر الأمر انهزم جمع ابن الأشعث وفر...»[1] وكان من حصيلة تلك الحروب فتن طويلة ومقتل عدد من العلماء منهم سعيد بن جبير رحمه الله.

- وكم ضل بهم أقوام ، وفسدت بهم عقائد ، وثارت بهم حروب وفتن عظيمة.

د- إيقاف مد الفتوحات:

أزعم – والله تعالى أعلم- أن الخوارج قد أوقفوا مد الفتوحات الذي كان زاحفاً بقوة أيام الخلفاء الثلاثة الأوائل ، ولولا الفتن التي

---

(١) «نزهة الفضلاء» : ١/ ٤٧٢.

أثاروها لوصل الإسلام إلى كل الأجزاء المعمورة في الأرض، لكن علياً رضي الله عنه وخلفاء بني أمية شغلوا بتوجيه مئات الآلاف من الجنود إلى الخوارج، وحسبك هذا النص عن واحد من السلف:

«لما قتل عثمان ووقع الاختلاف لم يكن للناس غزو حتى اجتمعوا على معاوية فأغزاهم مرات»[1].

وبعد معاوية رضي الله عنه انشغل بنو أمية بحرب الخوارج زمناً طويلاً، وفي عهد بني العباس كان للخوارج نفوذ ببعض المغرب.

ولا زال للخوارج ذيول إلى اليوم من قوم يتبنون بعض أفكارهم وفعالهم، أو يأخذون ببعض ذلك، وقد جر ذلك على المسلمين فتناً صعبة وآثاراً وخيمة في العصر الحديث في مصر والجزائر والسعودية، أوجزها في الآتي:

١- تدخل الدول الصليبية ودولة المسخ اليهودية في شؤون المسلمين، وهذا ظاهر معلوم.

٢- مساواة الكافرين والضالين بين المقاومة الجهادية المشروعة والإرهاب المذموم، والحكم عليها بحكم واحد لتحقيق مآرب في نفوس هؤلاء.

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٣٥٤.

٣- بروز طابور خامس في البلاد الإسلامية ينادي بوجوب تجفيف منابع الغلو والتطرف، وهي كلمة حق أريد بها باطل؛ حيث يريدون من وراء ذلك أموراً منها: وأد الصحوة الإسلامية المباركة، والحيلولة بين الدعاة الصالحين العاملين وبين قيادة الشباب.

٤- إزهاق أرواح وإتلاف أنفس كان من المنتظر أن تقدم لدينها وأمتها شيئاً ما.

٥- إتلاف أموال ضخمة من جراء المواجهات المستمرة بين الأمن وبين ذيول هؤلاء.

٦- والطامة الكبرى هي بروز بعض الاتجاهات التكفيرية بين بعض أولئك المناوئين، وهذه مصيبة عظيمة تخلف آثاراً تستعصي على علاج المعالجين ومحاولات إصلاح الدعاة والمصلحين.

٧- تشويه صورة الإسلام عند غير المسلمين وأصناف الكافرين، وقيام موانع أمام الدعوة الإسلامية في بلوغ فئام من الناس كان من المأمول أن يستجيبوا للدعوة.

٨- خوف كثير من العامة من الدعاة والصالحين لظنهم أنهم من جملة هؤلاء المفتونين، وهذا أدى بهم إلى الانصراف عن كثير من الأنشطة الإسلامية العامة، وصد أولادهم وأهليهم عنها.

٢- الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة:

وللمعتزلة أصول عقدية لايسعني إيرادها في هذا البحث الموجز لكني سأذكر قضية خلق القرآن التي أثارها المعتزلة بمساعدة الخليفة العباسي المأمون، وثارت على إثرها فتن طويلة استمرت زمان المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل الذي أمر برفع هذه الفتنة عن الناس، وقتل بسببها الشهيد العالم أحمد بن نصر الخزاعي مظلوماً، ومات علماء في السجون وهم مقيدون[١]، وامتحن الإمام أحمد على جلالته وضرب وسجن وألقي في القيود، وتشدد المعتزلة في هذه القضية حيث إنهم في زمان الواثق بالله العباسي تنمروا للناس، وامتحنوا الأئمة والمؤذنين، وامتحنوا العوام، ومن العجائب أن الوائق بالله العباسي افتدى أربعة آلاف وستمائة أسير مسلم من الروم فقال وزيره المعتزلي المشهور أحمد بن أبي دُواد: من لم يقل القرآن مخلوق فلاتَفتكّوه!![٢].

ومن أمثلة ما حصل بينهما أيضاً:

لما وصل شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي الأنصاري الحنبلي إلى بَلْخ - وهي في أفغانستان اليوم - وصل محمولاً على

---

(١) منهم الإمام البويطي الذي مات مسجوناً مقيداً سنة ٢٣١، انظر «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٩٨٢.
(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٨٨١.

أعناق الرجال، فلما أراد أن يدخل إلى بلخ خرج أهلها إليه، وهموا برجمه، لولا أن الله قيض له من دافع عنه ورد عنه كيدهم، وإنما هموا به لأنهم كانوا معتزلة شديدي الاعتزال، وكان شيخ الإسلام مشهوراً في الآفاق بالحنبلة والشدة في السنة[1].

٣- الخلاف بين أهل السنة والشيعة:

وهذا أيضاً أدى إلى نتائج صعبة وخيمة وحروب كثيرة، فمن ذلك:

أ- **ما وقع في بغداد مراراً بين الفريقين**، فمن ذلك ما نقله ابن الأثير في كامله في حوادث سنة ٤٤٣ حيث ذكر أن الفتنة وقعت بين السنة والشيعة، وعظمت أضعاف ما كانت قديماً، وسببها أن أهل الكرخ – محلة ببغداد فيها الشيعة – عملوا أبراجاً كتبوا عليها بالذهب: محمد وعلي خير البشر، وأنكر أهل السنة هذا، ثم حصلت أمور أدت إلى قتال ونهب بسبب مقتل هاشمي من أهل السنة، فقصد الناس المشهد ونهبوا ما فيه، وأضرموا حريقاً أتى على كثير من قبور الأئمة، فقصد الشيعة إلى خان الفقهاء الحنفيين فنهبوه، وقتلوا مدرس الحنفية أبا سعد السرخسيّ، وأحرقوا الخان ودور الفقهاء[2].

---

(١) «تحاسد العلماء»: ٤٩٠-٤٩١.

(٢) «تحاسد العلماء»: ٢٥١-٢٥٢ نقلاً عمن نقل عن الكامل: ٩/ ٢٥١.

ب- **ومما لا ينبغي أن ينسى ما اقترفه الوزير الرافضي ابن العلقمي في بغداد** سنة ٦٥٨ حين سوّل لهولاكو اقتحام بغداد وكاتبه وأطمعه في العراق، وهذا بسبب نقمته على أهل السنة حين وقعت الفتنة المهولة ببغداد بين السنة والرافضة، فقتل بسبب صنيعه هذا من الناس ببغداد فوق المليون شخص!!(١) وإنا لله وإنا إليه راجعون.

جـ- **ولا ينسى ما فعلته الدولة الصفوية الشيعية في إيران** من طعن الدولة العثمانية من الخلف في أشد الأوقات وأصعبها؛ حال اشتغال الدولة العثمانية بفتوح أوروبا، وذكر الحروب التي جرت بينهما أمر صعب مؤلم لا يحتمله هذا البحث، ولا تطيقه النفوس المتطلعة إلى الوئام والاجتماع(٢).

د- الفتن بين السنة والزيدية:

وهي فتن كثيرة متعددة كانت تجري في اليمن، لكني سأجتزئ منها واحدة فقط ذكرها الإمام الشوكاني -رحمه الله تعالى- متحدثاً عنها، وقد ذكر فتناً كثيرة كانت تجري في صنعاء بسبب التعصب

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٤/١٧٢٤.

(٢) انظر في المسألة السابقة رسالة: «الصفويون والدولة العثمانية» للأستاذ علوي عطرجي نشر دار الأندلس الخضراء بجدة.

الشيعي ، وقد بين الشوكاني ذلك أثناء ترجمته لأحد علماء الفرائض والرياضيات في صنعاء :

السيد يحيى بن محمد الحوثي ثم الصنعاني ، ولد تقريباً سنة ١١٦٠ ، ونشأ بصنعاء فاشتغل بعلم الفرائض والحساب والضرب والمساحة ففاق في ذلك أهل عصره وتفرد به ولم يشاركه فيه أحد وصار الناس عيالاً عليه في ذلك ، ولم يكن له بغير هذا العلم إلمام مع أنه قد توجه إلى الطلب ولكن كان كل حظه في هذا العلم ، وهو رجل خاشع متواضع كثير الأذكار سليم الصدر إلى غاية يعتريه في بعض الأحوال حدة مفرطة ، وقد كان حصل معه جنون في أيام شبابه ثم عافاه الله من ذلك ، وما زال مواظباً على الخير لكنه قليل ذات اليد بما يضيق صدره لذلك مع كثرة عائلته ويسر الله له ما يقوم به بعد مزيد امتحان ، وهو شيخي أخذت عنه علم الفرائض والوصايا والضرب والمساحة.

وفي شهر رمضان سنة ١٢١٦ ثارت بسببه فتنة عظيمة بصنعاء وذلك أن بعض أهل الدولة ممن يتظهر بالتشيع مع الجهل المفرط والرفض باطناً أقعد صاحب الترجمة على الكرسي الذي يقعد عليه أكابر العلماء المتصدرون للوعظ وأمره أن يملي على العامة كتاب «تفريج الكروب» للسيد إسحاق بن يوسف المتوكل وهو في مناقب

علي كرم الله وجهه، ولكن لم يتوقف صاحب الترجمة على ما فيه بل جاوز ذلك إلى سب بعض السلف مطابقة لغرض من حمله على ذلك لقصد الإغاظة لبعض أهل الدولة المنتسبين إلى بني أمية، كل ذلك لما بين الرجلين من المنافسة على الدنيا والمهافتة على القرب من الدولة وعلى جمع الحطام، فكان صاحب الترجمة يصرخ باللعن على الكرسي فيصرخ معه من يحضر لديه من العامة وهم جمع جم وسبب حضورهم هو النظر إلى ما كان يسرج من الشمع وإلى الكرسي لبعد عهدهم به وليسوا ممن يرغب في العلم، فكان يرتج الجامع ويرتفع الصراخ ومع هذا فصاحب الترجمة لا يفهم ما في الكتاب لفظاً ولا معنى بل يصحف تصحيفاً كثيراً ويلحن لحناً فاحشاً، ويعبر بالعبارات التي يعتادها العامة ويتحاورون بها في الأسواق، وقد كان في سائر الأيام يجتمع معهم ويملي عليهم في مسجد الإمام صلاح الدين فأراد أن يكون ذلك في جامع صنعاء الذي هو مجمع الناس ومحل العلماء والتعليم لقصد نشر اللعن والثلب والتظاهر به، فلما بلغ ذلك مولانا خليفة العصر حفظه الله جعل إشارة منه إلى عامل الأوقاف السيد إسماعيل بن الحسن الشامي أن يأمر صاحب الترجمة أن يرجع إلى مسجد صلاح الدين فأمر السيد المذكور الفقيه أحمد بن محسن حاتم رئيس المأذنة أن يبلغ ذلك إلى صاحب الترجمة فأبلغه.

فحضر العامة تلك الليلة على العادة ومعهم جماعة من الفقهاء الذين وقع الظلم بهذا الاسم بإطلاقه عليهم فإنهم أجهل من العامة، فلما لم يحضر صاحب الترجمة في الوقت المعتاد لذلك وهو قبل صلاة العشاء ثاروا في الجامع ورفعوا أصواتهم باللعن ومنعوا من إقامة صلاة العشاء، ثم انضم إليهم من في نفسه دَغَلٌ للدولة أو متستر بالرفض، ثم اقتدى بهم سائر العامة فخرجوا من الجامع يصرخون في الشوارع بلعن الأموات والأحياء وقد صاروا ألوفاً مؤلفة، ثم قصدوا بيت الفقيه أحمد حاتم فرجموه، ثم بيت السيد إسماعيل بن الحسن الشامي فرجموه، وأفرطوا في ذلك حتى كسروا كثيراً من الطاقات ونحوها، وقصدوه إلى مدرسة الإمام شرف الدين يريدون قتله فنجاه الله وهرب من حيث لا يشعرون، وقد كانوا أيضاً قصدوا قتل الفقيه أحمد حاتم فهرب من الجامع إلى بيتي، ونحن إذ ذاك نملي في شرحي للمنتقى مع حضور جماعة من العلماء، ثم بعد ذلك عزم هؤلاء العامة وقد تكاثف عددهم إلى بيت السيد علي بن إبراهيم الأمين ورجموه وأفزعوا في هذه البيوت أطفالاً ونساءً وهتكوا حرماً، وكان السبب في رجمهم بيت السيد المذكور أنه كان في تلك الأيام يتصدر للوعظ في الجامع ولم يكن رافضياً لعاناً، ثم عزموا جميعاً وهم يصرخون إلى بيت الوزير الحسن بن عثمان العلفي وإلى بيت الوزير الحسن بن علي حنش، والبيتان متجاوران فرجموهما، وسبب رجم بيت الأول كونه أموي النسب

ورجم بيت الآخر كونه متظهراً بالسنة متبرياً من الرفض، فأما بيت الفقيه حسن حنش فصعد جماعة من قرابته على سطحه ورجموهم حتى تفرقوا عنه وأصابوا جماعة منهم، أما بيت الفقيه حسن عثمان فرجموه رجماً شديداً واستمروا على ذلك نحو أربع ساعات حتى كادوا يهدمونه وشرعوا في فتح أبوابه ووقع الرمي لهم بالبنادق فلم ينكفوا لكونه لم يظهر لذلك فيهم أثر إذ المقصود بالرمي ليس إلا مجرد الإفزاع لهم، ثم بعد ذلك غار بعض أولاد الخليفة حفظه الله وبعض أصحابه فكفوهم فانكفوا وقد فعلوا ما لا يفعله مؤمن ولا كافر.

وفي اليوم الآخر أرسل الخليفة حفظه الله للوزير والأمراء وقد حصل الخوف العظيم من ثورة العامة وطال الترادد والمشاورة بينهم ومن بعد ذلك أرسل لي حفظه الله فوصلت إليه حفظه الله فاستشارني فأشرت عليه أن الصواب المبادرة بحبس جماعة من المتصدرين في الجامع للتشويش على العوام وإيهامهم أن الناس فيهم من هو منحرف عن العترة، وأن التظاهر بما يتظاهرون به من اللعن ليس المقصود به إلا إغاظة المنحرفين ونحو هذا من الخيالات التي لا حامل لهم عليها إلا طلب المعاش والرياسة والتحبب إلى العامة، وكان من أشدهم في ذلك السيد إسماعيل بن عز الدين النعمي، فإنه كان رافضياً جلداً مع كونه جاهلاً مركباً وفيه حدة تفضي به إلى نوع من الجنون، وصار يجمع مؤلفات من كتب الرافضة ويمليها في الجامع

على من هو أجهل منه ويسعى في تفريق المسلمين ويوهمهم أن أكابر العلماء وأعيانهم ناصبة يبغضون علياً كرم الله وجهه ، بل جمع كتاباً يذكر فيه أعيان العلماء وينفر الناس عنهم ، تارة يسميهم سنية وتارة يسميهم ناصبة ، ومع هذا فهو لا يدري بنحو ولا صرف ولا أصول ولا فروع ولا تفسير ولا حديث بل هو كصاحب الترجمة في التعطل عن المعارف العلمية لكن صاحب الترجمة يعرف فناً من فنون العلم كما قدمنا وأما هذا فلا يعرف شيئاً إلا مجرد المطالعة لمؤلفات الرافضة الإمامية ونحوهم الذين هم أجهل منه ، ويشبه الرجلين رجل آخر هو أحد عبيد مولانا الإمام حفظه الله اسمه ضرغام رأس ماله الاطلاع على بعض كتب الرافضة المشتملة على السب للخلفاء وغيرهم من أكابر الصحابة فصار هذا يقعد في الجامع ويملي سب الصحابة على من هو أجهل منه ، هذه الأمور هي سبب ما قدمنا ذكره .

فلما أشرت على مولانا الإمام حفظه الله بحبس هؤلاء وجماعة ممن يماثلهم حصل الاختلاف الطويل العريض في مقامه الشريف بين من حضر من أولاده ووزرائه ، ومنشأ الخلاف أن من كان منهم مائلاً إلى الرفض وأهله فهو لا يريد هذا ، ومن كان على خلاف ذلك فهو يعلم أنه الصواب وأنها لا تندفع الفتنة إلا بذلك فصمم مولانا حفظه الله على حبس من ذكر ، ثم أشرت عليه حفظه الله أن يتتبع من وقع منه الرجم ومن فعل تلك الأفاعيل فوقع البحث الكلي منه ومن

خواصه فمن تبين أنه منهم أودع الحبس والقيد وما زال البحث بقية شهر رمضان حتى حصل في الحبس جماعة كثيرة، فلما كان رابع شوال طلب الإمام حفظه الله الفقهاء المباشرين للرجم فبطحوا تحت طاقته وضربوا ضرباً مبرحاً ثم عادوا إلى الحبس، ثم طلب في اليوم الثاني سائر العامة من أهل صنعاء وغيرهم المباشرين للرجم ففعل بهم كما فعل بالأولين وضربت المدافع على ظهور جماعة منهم، ثم بعد أيام جعلوا في سلاسل حديد وأرسل بجماعة منهم إلى حبس زيلع وجماعة إلى حبس كرمان، وفيهم ممن لم يباشر الرجم السيد إسماعيل بن عز الدين النعمي المتقدم وسبب ذلك أنه جاوز الحد في التشديد في الغرض كما قدمنا، وأما صاحب الترجمة ومن شابهه في هذا المسلك فإنه حبس نحو شهرين ثم أطلق هو من معه، وبالجملة فهذه فتنة وقى الله شرها بالحزم الواقع بعد أن وجلت القلوب وخاف الناس واشتد الخطب وعظم الكرب وشرحها طويل، وبعد هذه الواقعة بنحو سنة عول صاحب الترجمة في أن يكون أحد أعوان الشرع ومن جملة من يحضر لدي فأذنت له وصار يعتاش بما حصل له من أجرة تحرير الورق وذلك خير له مما كان فيه إن شاء الله[1].

---

(١) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للإمام الشوكاني: ٢/ ٣٤٤ – ٣٤٨.

المبحث الثالث

المآسي المترتبة على الفرقة في العصر الحديث من القسمين السابقين

وفي هذا العصر تأجج الخلاف وعظُم بين أفراد الأمة، هذا الخلاف الذي له جذور تاريخية، ومؤثرات عصرية، من أهمها قوة وسائل الإعلام التي ربطت بين أرجاء العالم الإسلامي فأصبحت الفتاوى المختلفة، والتقريرات المؤثرة من المحيط إلى المحيط تنتقل في اليوم نفسه، أحياناً، إلى المسلمين مسببة لهم كثيراً من البلبلة وعدم الاتفاق نظراً لاختلاف المدارس الفقهية والعقدية التي كانت محصورة، فيما مضى، في مجتمعات محددة ومعروفة، وإن كتب لها الانتشار فإنه في حدود ضيقة، وفي أوساط علمية محددة، وليس بين عوام المسلمين كما يحصل اليوم.

ويؤجج هذا الخلاف أيضاً، بروز كثير من الناشئة الذين ليس عندهم العلم الكافي ولا الخبرة للتصدي لأمر عظيم ألا وهو التوجيه الإسلامي للمجتمع في كل مناحيه وليس في الفتاوى فحسب، فكان مما صنعه هؤلاء الناشئة أن ساهموا، بقوة، في تعميق الخلاف بين المسلمين بل إثارة جذور الخلاف الماضي الذي ظُن أنه قد فرغ من البحث فيه.

كل ذلك أدى إلى أن يفزع العلماء والمفكرون إلى كتابة عشرات الأبحاث التي عالجت، على الورق، كثيراً من الجوانب المهمة، ولا زالت تلك الأبحاث بحاجة إلى التطبيق العلمي الذي، بدون تشاؤم، يتعثر كثيراً نتيجة لعوامل كثيرة لا سبيل لذكرها في هذا البحث الموجز.

وإليك، أخي القارئ، بعض الوقائع المؤلمة التي تشي بما عليه مجتمعنا من سوء تطبيق، في أحيان كثيرة، لهذا الأدب الرفيع، أدب الخلاف، وغرضي من ذكر هذه الوقائع أن نعتبر بها فنعف عن أمثالها ونزجر من يجرؤ على ارتكابها:

١- إمام في مسجد يتقدم ليؤم الناس فيأتي شخص من خلفه ليعيقه عن التقدم بطريقة فظة، غليظة، ويأخذ مكانه إماماً للناس بحجة أنه أولى منه بالإمامة، علماً بأنه لا يحفظ القرآن، وذلك الإمام المنحى هو الحافظ المجيد، وقد تم ذلك نظراً للخلاف بينه وبين الإمام في بعض الجوانب التي ظن أنه لا يسوغ غفرانها والمسامحة فيها، أما حال المصلين وما سيحدثه ذلك التصرف فيهم وفيمن سمع الحادثة فذلك آخر اهتمامات ذلك الرجل المريض.

٢- رجل يشي باجتماع بريء لأحد التجمعات الإسلامية التي اختلف معها اختلافاً لا يؤديه إلى فعل ذلك شرعاً وعقلاً،

ولكن أدب الخلاف اضمحل عنده ووصل إلى درك سحيق جعله يرتكب تلك الفعلة الدنيئة عرفاً، الآثمة شرعاً.

٣- رجل تتلمذ على شيخ درس القرآن وبعض العلوم على يديه، فهو إذاً شيخه وأستاذه، فكان أن اختلف معه في مسألة، قد فرغ من أنه يسوغ فيها الخلاف، فما كان منه إلا أن نفض يديه من أستاذه وشيخه وأصبح همه الوحيد هو التشهير به عند الخاصة والعامة، بل سعي بكل جهده أن يخرج أستاذه من مسجده الذي هو إمامه فتكللت مساعيه، غير الحميدة، بالنجاح.

٤- اتفق مجموعة من صالحي الدعاة مع مدير مدرسة أن يتخذوا من مدرسته مركزاً صيفياً لاستيعاب الطلاب وحفظهم من الزيغ والملل، فما كان من فئة مريضة إلا أن حذرت المدير من إخوانهم الذين اختلفوا معهم في بعض الجوانب التي يسوغ فيها الخلاف، وخوفته عاقبة ضلال إخوانهم، وتأثيرهم السيء على الطلاب في زعمهم وهو محض افتراء، فتوجس المدير خوفاً، ومعه كل الحق في الخوف على الطلاب الذين هم أمانة في عنقه يسأل عنها يوم القيامة، وقام بسحب موافقته السابقة، وأوكل إدارة المركز لمن وشوا بإخوانهم ظلماً وبهتاناً، فهل رأيتم كيف يصل الأمر بمن فرط في مراعاة أدب الخلاف؟!!

٥- سئل رجل عن رأيه في الإمام الفلاني، فأبدى ما يفهم منه أنه مبتدع، وعندما سئل عن السبب قال: إنه قد (شم) من حديثه البدعة! وكان هذا هو السبب لهذه الوصمة لا غير، وهذا الرجل المسؤول مقدم عند بعضهم مسموع الكلمة فيهم.

فبربكم هل سمعتم عن جرح مبني على مثل هذا الهراء؟!!

٦- دافع عالم فاضل عن فئة أخطأت بعض معالم المنهج الصحيح، ولكنها لا زالت في دائرة السنة والجماعة، وكان دفاعه ذلك بسبب أن واحداً من المشايخ أفرط في ذمهم إلى الغاية، فظن المفرط أن هذا العالم منهم فأكد له أنه على خلاف ذلك، وأنه لا يسلك مسلكهم، فلم يعتمد إلا ما ظنه وارتآه، فسلك في الوشاية بهذا الفاضل مسالك أدت إلى إبعاده عن مواقع قيادية في حياته العلمية.

٧- رجل تقدم لامتحان إلى لجنة من اللجان، فسئل: أين حفظت القرآن؟ ومن هم رفقتك؟ فلما أجاب ظن به أنه مبتدع لسوء ظن اللجنة بذلك المسجد وأهله، فحرم من الغرض الذي أداه إلى المثول أمام تلك اللجنة الظالمة له بظنها الخاطئ فيه أنه من أهل البدع!!

٨- وآخر تقدم لجامعة من الجامعات، فلما علم بعض إداريّيها أنه

مزكى من طرف فلان ظُنّ به أنه مبتدع، وحُرِم من القبول لأول الأمر، ولم يسمح له بالانتظام في سلك تلك الجامعة إلا بعد لأي شديد.

٩- عالم يحاضر في جمع، ثم بعد الفراغ من محاضرته يتوجه ذلك الجمع إلى المسجد لأداء الصلاة، وبعد الفراغ يفاجأ الجمع بمن يقوم منددًا بهذا العالم مبينًا مساوئه، في زعمه، فيتأثر ذلك العالم ويبكي، فيقوم عالم آخر ليدافع، فيكاد ذلك الاشتباك يفسد الجو العلمي الإيماني الذي عاشه ذلك الجمع المدهوش بما حدث لشيخه.

١٠- شاب في مقتبل العمر يحضر محاضرة لشيخ معروف، فيسأل ذلك الشيخ بعد نهاية المحاضرة سؤالًا في القضاء والقدر، فيجيب الشيخ بما قرره أهل السنة والجماعة في هذا، فما كان من ذلك الشاب إلا أن قام في وسط الجمع ليعلن أنه لم يفهم جواب الشيخ، فأعاد الشيخ تقريره للمسألة، ففوجئ الحاضرون بالشاب يقرر أنه لم يفهم المسألة لأن الشيخ لم يقرر مذهب أهل السنة والجماعة فيها، ولم يشرحها بطريقة الشيخ الفلاني.

والشاب على الحقيقة، لم يفهم المسألة، وإنما أساء الأدب في الخطاب، والمسألة أكبر منه.

١١- رجل التزم منذ مدة وجيزة، فيأتي به الثناء الكاذب والتعالم إلى موقع يحاسب فيه أئمة وخطباء ويقومهم، وبعضهم قد التزم الإسلام قبله بثلاثين سنة، فيكتب فيهم تقاريره بأنهم مبتدعة أو ضلال أو جهلة، وهو، المسكين، لا يدري بأنه جاهل قد استدرج إلى هذه الهوة السحيقة، فنكب به عدد الأئمة أولي الفضل، ممن أجلوا محاسبته حتى يمثلوا معه أمام ملك الملوك سبحانه.

١٢- رجل من المتعالمين قد حقق بعض المخطوطات وصنف بعض التصانيف، اعتاد فيها أن يتناول علماء الأمة الذين مضوا باللمز والإساءة، فيصف هذا بأنه عقيدته فاسدة جداً، وآخر بأنه جهمي جلد، وآخر بأنه بدت منه الزندقة، أو تجده يدعو على العلماء، أو يمتنع من الترحم عليهم بدعوى أنهم أهل بدع ، أو يقلل من شأنهم، والخطير في هذا الأمر أن علماء الأمة وعقلاءها لم يحركوا ساكناً للحد من سفاهة هذا الرجل وقلة أدبه والتقليل من خطره على النشء، إذ هو، كما يُذكر، قدوة لبعض جهلائهم وغرارهم.

كانت تلك بعض الصور التي لا يستطيع القلب أن يسترسل في بيانها وجلب المزيد منها، ولولا الحاجة إلى التنبيه عليها بذكرها ما

أتيت بها ، لكني أزعم أن هذا الخلاف المتأجج الموجود في الساحة اليوم أدى إلى نتيجة سيئة وهي تأخير الصحوة عن بلوغ آمالها وأغراضها وزرع في الأمة بذور الفراق المذموم ، والإحن التي تشتعل بها القلوب والصدور ، والله المستعان.

المبحث الرابع

المآسي المترتبة على الفرقة السياسية

وهو بسبب ما كان من استئثار بعض الحكام بجهته أو مدينته، ورضاه بها عن الاجتماع الإسلامي، والأدهى من ذلك والأمرّ أن صار بعض الحكام يكيد للآخر، ويرضى أن يخدش دينه بمعاونة الكافرين على أخيه المسلم، وهذا من المصائب والدواهي التي ابتليت بها الأمة الإسلامية منذ تسعة قرون إلى الآن، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تكاد تنتهي، لكن أجتزئ منها قديماً ما حصل في الأندلس، وهو الذي بأيدينا فقدناه، وبمعاصينا نكبناه، والحديث فيما حصل فيه من فرقة بين حكامه يطول لكن قد يسأل سائل:

ألم يكن هناك دعاة لدين الله تعالى يحذرون الحكام المسلمين من الخلاف وينبهونهم إلى ما سيحل من العقاب؟ وهذا سؤال في محله، والجواب: بلى كان هناك دعاة إلى الاجتماع والاتحاد ولكن الحكام لم يكونوا متعاطفين مع تلك الدعوة لأن معناها التنازل عما هم فيه من الترف والنعيم والتسليم لخليفة واحد لا يرضونه ولا يريدون حكمه، هذا مع ما جبلت عليه نفوسهم من حب المعاصي والخيانة وتذبذب الولاء والبراء.

وفي تاريخنا الإسلامي مثل مضيء لداعية من الدعاة لم يعجبه موقف الحكام الأندلسيين من سكوتهم على الخطر المنذر بالنهاية فـ" رفع صوته بالاحتساب، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبتّ[1] من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون لو صادف أسماعاً واعية، بل نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال داثرة، بيد أنه[2] كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التأنيس والتقريب، وهو في الباطن يستجهل نزعته، ويستثقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم، وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالاً تثوب[3] ومذنباً يتوب[4]» .

كان هذا الفقيه هو أبا الوليد الباجي رحمه الله تعالى، ولكنه كما قال المقري: «لم يفد شيئاً، فالله تعالى يجازيه عن نيته»[5]، واستمر رحمه الله تعالى في دعوته تلك ثلاث عشرة سنة حتى «توفي بالمرية سنة ٤٧٤ .. وكان جاء إلى المرية سفيراً بين رؤساء الأندلس

---

(١) انبت: انقطع.

(٢) أي لكنه.

(٣) أي ترجع.

(٤) «التاريخ الأندلسي» لعبدالرحمن الحجي: ٣٣٩ نقلاً عن «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، لابن بسام.

(٥) المرجع السابق.

يؤلفهم على نصرة الإسلام ويروم جمع كلمتهم مع جنود ملك المغرب المرابطين على ذلك فتوفي قبل تمام غرضه رحمه الله»[١].

ولم يكن في الساحة وحده رحمه الله تعالى بل كان معه نجوم هو شمسهم منهم أبوحيان، وأبو الحزم جَهْور بن محمد بن جهور، وابن حزم، والإلبيري، والعسال الطليطلي، وابن عبدالبر، كل هؤلاء شاركوا في جهود الإنقاذ والدعوة إلى الاتحاد والحذر من الخطر القائم، شاركوا بشعرهم وكتابتهم ودروسهم[٢].

لكن كل ذلك لم يفد، واجتاحت النصارى بلاد الأندلس بلداً بلداً، والأمثلة على المآسي المترتبة على ما حصل من فرقة أكثر من أن تحصر لكن ليسمح لي القارئ بإيراد بعض الأمثلة التي تؤذي القلوب وتُهْمي العيون لكن لا بد حتى تُعرف المأساة المترتبة على الافتراق من ضياع الأوطان بل الدين والعياذ بالله:

١- بعد أخذ النصارى -لعنهم الله- طليطلة شرعوا في تغيير الجامع إلى كنيسة بعد شهرين مع أن نصوص تسليم المدينة قد نص فيها على «أن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع»، ولما ذهب النصارى إلى الجامع لم يجدوا فيه إلا

---

(١) المرجع السابق: ٣٤٣ نقلاً عن «ترتيب المدارك» للقاضي عياض.

(٢) انظر المرجع السابق: ٣٤٤-٣٤٧.

«الشيخ الأستاذ المغامي آخر من صدر عنه، واعتمده في ذلك اليوم ليتزود منه... وبين يديه أحد تلامذته يقرأ، فكلما قالوا له: عجل، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل، ثم قام ما طاش ولا تهيب، فسجد فيه واقترب، وبكى عليه ملياً وانتحب، والنصارى يعظمون شأنه ويهابون مكانه، لم تمتد إليه يد، ولا عرض له بمكروه أحد»[1].

٢- وبعد سقوط بَرْبَشْتْرُ قدر عدد الأسرى والقتلى ما بين خمسين إلى مائة ألف شخص، "وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى، حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو هو قائد خيل رومة نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً، ومن أوقار[2] الأمتعة والحلى والكسوة خمسمائة جمل، واقتسم الفرنجة الناس وأخذ كل واحد منهم داراً بمن فيها من أهلها، وكان الفرنج - لعنهم الله تعالى - يفتضون البكر بحضرة أبيها، والثيب بعين زوجها وأهلها، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أعطاهن

---

(١) «التاريخ الأندلسي» ٣٣٤ نقلاً عن «الذخيرة في محاسن الجزيرة» وغيرها.

(٢) أحمال.

خدمه وغلمانه يعيشون فيهن عَيْثة ، وبلغ الكفرة منهم يؤمئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة ، ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى من هم فوقه[1]».

وأورد ابن حيان - رحمه الله تعالى- قصة تبكي القارئ وتذهل العاقل وحاصلها أن تاجراً من تجار اليهود جاء بربشتر ليفتدي بعض بنات ذوي الوجوه المسلمين ممن نجين من الحادثة ، وكن تلك البنات قد وقعن في سهم رجل من النصارى يعرفه ، فقال :

«فهديت إلى منزله فيها ، واستأذنت عليه فوجدته جالساً مكان رب الدار ، مستوياً على فراشه ، رافلاً في نفيس ثيابه ، والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيئاً من رياشهما وزينتهما ، ووصائفه مضمومات الشعور ، قائمات على رأسه ، ساعيات في خدمته ، فرحب بي وسألني عن قصدي ... فأشرت إلى وفور ما أبذله في بعض اللواتي على رأسه وفيهن كانت حاجتي ، فتبسم وقال بلسانه : ما أسرع ما طمعت فيما عرضناه لك ، اعرض

---

(١) «نفح الطيب» للمقري : ٦/٢٣٩- ٢٤٠ بتصرف.

عمن هنا وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصني من سبيي وأسراي أُقارِبْك فيمن شئت منهم.

فقلت له: أما الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه، وبقربك أنست، وفي كنفك اطمأننت، فسُمْني ببعض من هنا فإني أصير إلى رغبتك.

فقال: وما عندك؟ قلت: العين الكثير الطيب، والبَزّ الرفيع الغريب، فقال، كأنك تشهيني ما ليس عندي، يا مَجّة، ينادي بعض أولئك الوصائف، يريد «يابهجة» فغيره بعجمته، قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق، فقامت إليه وأقبلت بِبَدَر[1] الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلي، فكُشف وجعل بين يدي العلج[2] حتى كادت تواري شخصه، ثم قال لها: أدني إلينا من تلك التخوت، فأدنت منه عدة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر مما حار له ناظري وبهت، واسترذلت ما عندي.

ثم قال لي: لقد كثر هذا عندي حتى ما ألذ به، ثم حلف بإلهه أنه لو لم يكن عنده شيء من هذا ثم بذل له بأجمعه في ثمن تلك ما سخت بها يداه، فهي ابنة صاحب المنزل، وله حسب في قومه،

(١) أوعية.

(٢) النصراني الكافر.

اصطفيتها لمزيد جمالها لولادتي حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم، وقد رُدّ لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه، وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة[1] - وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى- مغنية والدها التي كانت تشدو له على نشواته إلى أن أيقظناه من نوماته، يافلانة، يناديها بلكنته، خذي عودك فغني زائرنا بشجوك.

قال: فأخذت العود، وقعدت تسويه وإني لأتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العلج مسحه واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا فضلاً عن العلج، فصار من الغريب أن أظهر الطرب منه، فلما يئست مما عنده قمت منطلقاً عنه، وارتدت لتجارتي سواه، واطلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجبي به»[2].

وكفى بهذه القصة دليلاً على ما أصاب المسلمين من الذل، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

يا غافلاً وله في الدهر موعظة   إن كنت في سِنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه   أبعد حمص[3] تغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها   ومالها مع طول الدهر نسيان

---

(١) أي الفتاة الشابة الناعمة.

(٢) «نفح الطيب»: ٦/٢٤٠ - ٢٤٢ بتصرف.

(٣) حمص هي: إشبيلية سميت بذلك لشبهها بحمص.

يـاراكبين عتـاق الخيـل ضـامرة كأنهـا في مجـال الـسبق عقْبـان[1]

وحـاملين سـيوفَ الهنـد مرهفـة كأنهــا في ظــلام النقــع نــيران

وراتعــين وراء البحــر في دَعَــة لهــم بأوطــانهم عــز وســلطان

أعنـدكم نبـأ مـن أهـل أنـدلس فقـد سـرى بحديث القـوم ركبـان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهـم قتلـى وأسـرى فمـا يهتـز إنـسان

مـاذا التقـاطع في الإسـلام بينكمُ وأنــتمُ يــا عبــاد الله إخــوان

ألا نفــوسٌ أبيـات لهــا همــم أمـا علـى الخير أنـصار وأعـوان

يـامن لذلـة قـوم بعـد عـزهمُ أحـال حـالهمُ كفـر وطغيـان

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هـم في بـلاد الكفر عبدان

فلـو تـراهم حيارى لا دليـل لهـم علـيهم مـن ثيـاب الـذل ألـوان

ولـو رأيـت بكـاهم عنـد بـيعهم لهالـك الأمـر واسـتهوتك أحـزان

يـارُبَّ أمٍ وطفـل حِيـل بينهمـا كمــا تفــرق أرواح وأبــدان

وطَفْلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنمـا هــي يـاقوت ومرجـان[2]

يقودهـا العلـج للمكـروه مكرهـة والعــين باكيــة والقلــب حـيران

لمثل هذا يذوب القلـب مـن كمـد إن كان في القلب إسلام وإيمان[3]

---

(١) جمع عقاب وهو طائر معروف.

(٢) الطَفْلة : الفتاة الناعمة البيضاء.

(٣) من قصيدة لأبي البقاء الرندي يرثي فيها الأندلس، وطالعها كاملة في «نفح الطيب»: ٦/٢٧٩-٢٨١.

جـ- وبعد سقوط غرناطة يحدثنا التاريخ عن هذا المشهد:

«صعد الكردنال إلى إحدى الأبراج بالقصر (قصر الحمراء) ونصب فوقه صليباً كبيراً من فضة ولواء الملكية المسيحية.. وما إن أبصرت الملكة الصليب منصوباً فوق قصر الحمراء حتى انحنت نحو الأرض واقفة على ركبتيها وهي تصلي وتوجه الشكر إلى ربها، أثار المشهد الحماس في نفوس أعضاء حاشيتها فعكفوا يرتلون الأناشيد الدينية. عند ذلك بدأ فيرديناند وبعض علية القوم وأعيانهم، يزحفون نحو غرناطة، ولما دخلوا تقدم نحوه أبوعبدالله (ملك غرناطة) ممتطياً جواده ولما دنا من فرناندو تهيأ للنزول عن صهوته ليقدم التحية إلى الملك النصراني لكن هذا الأخير أومأ إليه ألا يفعل، شفقة عليه، فقبّل أبوعبدالله -مع ذلك- ذراع فيرديناند اليمني وقدم إليه مفاتيح القصر»[1].

وهذا الذل الذي قبل به أبو عبدالله الصغير كان رجاء أن يوفي النصارى بوعودهم للمسلمين بالحفاظ على شعائر الإسلام وحرية التدين، فماذا حدث بعد هذه الذلة وهذا التنازل للنصارى؟.

لا تسأل بعد ذلك عما حدث من الملكين فرديناد وإيزابيلا من

---

(١) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب»: ٥٥ نقلاً عن «محنة العرب في الأندلس».

نكث الوعود وإحراق كتب المسلمين[1] لإزهاق الحضارة الإسلامية، ومن فرض التعميد على الأطفال، ومن منع أداء شعائر الإسلام، ومن منع التسمي بأسماء عربية، ومن منع الختان، ومن منع التحدث بالعربية، إلخ....

«ثم بعد ذلك دعاهم (أي ملك غرناطة النصراني) إلى التنصير وأكرههم عليه وذلك في سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينه كرهاً، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق من يقول فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله جهراً إلا من يقولها في قلبه أو خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وكم فيها من قلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعدومين، ومن قلوبهم تشتعل ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً مدراراً، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويأكلون الخنزير ويشربون الخمر

(١) جمع ما يقارب من مليون كتاب مخطوط من المكتبات العامة والمكتبات الخاصة وأحرقت بأمر أحد الكرادلة السفلة في ميدان غرناطة، وكان هذا العدد من الكتب يفوق كافة الكتب الموجودة في مكتبات أوروبا بكاملها، بل لم تكن في أوروبا آنذاك مكتبة واحدة تمكنت من جمع عشرة آلاف مجلد. «موقف الدولة العثمانية»: ٤٠، نقلاً عن «تاريخ الدولة العثمانية» لمؤلفه يلماز أوزوتا.

..فلا يقدرون على منعهم ..ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب، فيالها من فجيعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها»[1].

الافتراق السياسي في العصر الحديث:

وأما ما حصل من خلاف بين كثير من زعماء الأمة الإسلامية في العصر الحديث فهو أمر مؤسف، ومازال الخلاف مستحكماً بين بعضهم بعضاً حتى حصل المحذور، وتقاتل بعضهم مع بعض، وأذهبوا شوكتهم، وأضعفوا قوتهم، وداخلهم العدو الكافر، ووطئ بأقدامه الدنسة عدداً من بلدانهم، وما كان ليطمع في هذا لولا الفرقة التي وقعت بين بعض حكامهم، وهذا العدو اليهودي الماكر يهدم البيوت، ويقتل الرجال والنساء والأطفال، وصيحاتهم تتعالى ولا مجيب، وما يحصل في الشيشان وكشمير والعراق من مآسٍ يشيب لهولها الولدان، كل ذلك لأسباب على رأسها الفرقة السياسية والخلاف المستحكم بين كثير من رؤوس الأمة الإسلامية، وقد كان ما خاف الصالحون أن يكون فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن أنكى وأشد الأمور على النفوس ما حدث في العصر الحديث من افتراق سياسي في أفغانستان بين الأحزاب المختلفة بعد سقوط كابول

---

(١) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب»: ٥٦-٥٧ بتصرف يسير.

ودخول المجاهدين وكانت الدولة الإسلامية قاب قوسين أو أدنى منهم ولكنهم ضيعوها بسبب ما حدث بينهم من نزاع خطير أدى إلى قيام حرب حقيقية بينهم والتراشق بآلاف الصواريخ ومقتل آلاف الناس، كل ذلك بسبب السعي إلى الزعامة والتفرد، والمطامع الدنيوية، وهذا هو الذي أضاع المشروع الإسلامي الذي كان ينتظره مئات الملايين من المسلمين، وضحوا في سبيله بالغالي والنفيس على مدار اثنتي عشرة سنة أو أكثر من عمر الجهاد، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي السودان اليوم يكاد يعصف الخلاف السياسي والخلاف بين الجماعات بالبلد وأهله، وقد برزت لهم الفتن من كل جانب، وهذه دارفور يخطط لها الغرب لتكون مسمار جحا لهم في السودان حتى يفعلوا بها ما فعلوه في العراق فهل يتنبه إخواننا هنالك وينبذون الخلاف والفرقة؟!

ولا تسأل عما ترك الخلاف السياسي في نفوس الناس عامتهم وخاصتهم من الآثار السيئة، وما فعله في الأمة، ويمكن أن أجمل ذلك في الآتي:

١- الإحباط واليأس، والقنوط من تحقيق النصر عند كثير من الناس.

٢- الخوف من العدو المتربص، والتوجس منه شراً، مما أدى إلى حالات من البخل بالمال، والنزوع إلى الفردية في

العمل والتخوف من الاجتماع، وسوء الظن بالآخرين، والعصبية للإقليم.

٣- الفتنة الحاصلة عند كثير من العوام والخواص حيث يقارنون بين الاجتماع السياسي الغربي والفرقة الإسلامية، وهذا يجلب على العوام خاصة أثرين خطيرين هما:

أ- إيثار ومحبة ما عليه الغرب من نظم سياسية.

ب- النظر بعين الازدراء – والعياذ بالله- إلى النظم الإسلامية كالشورى مثلاً، والتصريح بأنها لم تفد شيئاً في هذا الزمان بل منذ أزمان، فهم لا يدركون أن المشكلة تكمن في سوء التطبيق وليس في أصل النظام الإسلامي العظيم.

٤- فقدان الشعور بأهمية اجتماع الأمة الإسلامية واتفاقها على الغايات الكبرى، بل فقد كثير من العوام الشعور بالانتماء الإسلامي العام إلى أمة واحدة.

٥- عدم الاجتماع السياسي أدى إلى قيام بعض الأفراد بتصرفات منفردة معزولة عن باقي الأمة لا تصح شرعاً أورثت الأمة نكبات لا تزال تعاني منها إلى الآن، ومنها إعلان الجهاد من قبل قلة قليلة بدون ضوابط ولا مراعاة لحال الأمة مما أدى

إلى كوارث، وأقرب مثال على هذا ما حدث في أمريكا ويحدث في بعض البلاد العربية والإسلامية.

٦- استمرار هذه الفرقة السياسية يُعضد قول العلمانيين ومن لفّ لفهم أن الاجتماع الإسلامي لم يكن والأحكام الشرعية لم تطبق إلا مدة الخلفاء الراشدين ثم تمزقت الأمة ولا سبيل لاجتماعها من جديد، وأن كل محاولة لجمعها إنما هي صرخة في واد، وفي هذا من المجافاة للحقيقة ومن التثبيط ما فيه، فليحذر.

الخاتمة وفيها النتائج والتوصيات

ها قد حان أوان ختم هذا البحث الموجز، وقد ظهر في هذا البحث جملة من النتائج أوجزها في الآتي:

١- الخلاف الواقع في الساحة الإسلامية اليوم أمر لا بد منه، وهو من جملة السنن، وليست المشكلة هي مشكلة الخلاف لكن المشكلة نسيان المخالفين لأدب الخلاف، وقفزهم فوق القضايا المشتركة والقواعد الأصلية والكليات العامة فمثل هذا الخلاف الذي يؤدي إلى الافتراق لهو شر محض، ونكاية في هذه الأمة، وإذهاب لقوتها وريحها، وإطماع للأعداء فيها، وقد ظهر هذا –أي طمع العدو في هذه الأمة- جلياً في مبحث الافتراق السياسي.

٢- قد ترتب على هذا الخلاف ومن ثم الافتراق قتلٌ للعلماء والصلحاء، وإهانة للعباد والزهاد، وتشكيك في الدعاة والعاملين، وفي هذا شر مبين، وزرعٌ للإحن والبغضاء مبير.

٣- إن هذا الخلاف أدى إلى ضعف التوجه نحو الفتوحات ونشر

الإسلام في العالمين ؛ إذ انشغل صفوة الناس بتلك الفرقة المبيرة والمحنة الكبيرة، وانظر إلى هذا النص الثمين في وصف أثر مهم ترتب على خلاف الصحابة فيما بينهم -رضي الله عنهم- قاله أحد السلف :

«لما قتل عثمان ووقع الاختلاف لم يكن للناس غزوٌ حتى اجتمعوا على معاوية فأغزاهم مرات»[1].

فقد ترك الجهاد والغزو مدة الفتنة، وتلك بلية عظيمة ؛ إذ كان الفتح الإسلامي نشطاً ممتداً يصاحبه حماس كبير، حتى إذا وقعت الفتنة هدأ كل ذلك، وفاتنا ما هنالك.

٤- إن الافتراق يترك في نفوس الدعاة والعاملين والشباب المقبلين آثاراً من الإحباط مريرة، وشعوراً بالإخفاق وتلك جريرة وأية جريرة، ذلك أن هؤلاء إذا اطلعوا على ذلك الاختلاف -بَلْهَ المشاركة فيه- حصل لهم نوع من الامتعاض والشعور بتأخر النصر وربما تركوا العمل، وهذه بلية عظيمة ؛ إذ على مثل هؤلاء بعد الله تعالى نعوّل، وفيهم نؤمل ما نؤمل.

٥- والعامة قد فقدوا الثقة في كثير من الدعاة والعلماء بسبب ما يرونه من خلاف مستمر بينهم.

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٥٤.

٦- الخلاف المؤدي إلى الفراق قد يصد الكفار عن الدخول في الإسلام ويزهدهم فيه.

٧- الخلاف في العصر الحديث ورث الخلاف الذي كان منتشراً زمان السلف والخلف، لكن لم يعد في هذا العصر خلاف مذاهب فقهية -إلا قليلاً- بل صار خلافاً بين الجماعات الإسلامية المتعددة التي ما قامت كلها إلا لنصرة الإسلام!! فهذه مفارقة عجيبة ومناقضة غريبة.

٨- الخلاف بين أهل السنة أنفسهم أذهب شوكتهم، ويبدد طاقاتهم، وفرق جهودهم، ومهد لطمع المبتدعة فيهم، ومن ثم طمع الكافرين في ديارهم وأموالهم، وما حصل في أفغانستان مثال واضح لما ذكرته، والله المستعان.

٩- ليس هناك أملٌ في إقامة اجتماع إسلامي عام في الأمة ما لم يتم جمع الجماعات الإسلامية الكبيرة -على الأقل- على أسس واضحة من التعاون والاجتماع، وعدم التنازع المفضي إلى العداوات والتفرق.

١٠- هذا الافتراق والتنازع أدى إلى الوقوع في بعض الكبائر كالغيبة والحقد والحسد، و أدى إلى تأخير النصر الذي له

شروط منها عدم الإصرار على المعاصي الكبار التي تفعل في الأمة فعل معاول الهدم في البناء الشامخ.

التوصيات

أما التوصيات التي أوصي نفسي وإخواني والمسؤولين على اختلاف أنواعهم وطبقاتهم بها فهي الآتي:

١- التزام تقوى الله تعالى والخوف من عقابه إذا افترقنا وذهبت ريحنا، وضعفت شوكتنا، وسؤال الله تعالى لنا والحالة هذه غير مستبعد، عما فرطنا فيه وسلكنا غير المسلك الأحمد.

٢- أن تربى الأجيال على حب الوفاق والوئام، وبغض الافتراق، وأن يوقفوا على مثل هذه النصوص، وأن يعذر بعضهم بعضاً في الخلاف السائغ لئلا يكونوا للأعداء كالطعام السائغ.

٣- على العلماء والقيادات الدعوية أن يربوا التابعين لهم على مراعاة التوازن، وفقه الخلاف، وهذا يساعد في تحقيق أمرين مهمين، هما:

أ- هؤلاء الاتباع لن ينقلبوا عليهم كما هو مشاهد في الانشقاقات الحاصلة في الجماعات الإسلامية في هذا العصر.

ب- حمل الطلاب وقواعد الدعاة شيوخهم وقياداتهم على الائتلاف وعدم الفرقة.

٤- إنشاء هيئات دعوية يصدر عنها قرارات تصب في مصلحة الدعوة الإسلامية، فكما للفقه مجامع وهيئات، وللحديث والعقيدة والتاريخ جمعيات، فينبغي أن يكون للدعوة هيئات ومجامع وجمعيات يجتمعون فيها وينسقون فيما بينهم فيما يخدم أغراض الدعوة الإسلامية ومقاصدها، ويصدرون في كل ذلك عن نية صالحة وعمل مبارك.

٥- إعادة كتابة الأحداث المؤرقة والفتن التي حدثت في التاريخ الإسلامي كتابة تربوية تقف على مواطن الزلل وتنتقدها وتقومها، وتظهر العيب ليتجنبه الناس، وتبين زلل الأوائل ليتحاشاه الأواخر، وقد قالت العرب قديماً: السعيد من اتعظ بغيره لا من وُعظ به غيره، وهذا يستلزم إعداد أساتذة يحسنون قراءة التاريخ وفي الوقت نفسه يكونون مسلحين بالعلم الشرعي العاصم عن الزلل أو الميل عن القصد.

٦- نشر أدب الخلاف على رؤوس الناس في المنابر والمجامع ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، والإكثار من ذلك حتى يصير خلقاً مشاعاً معتاداً بين الناس، وربط كل ذلك بالإسلام وتعاليمه ليصير مراعاة أدب الخلاف عبادة وتقرباً إلى الله تعالى.

٧- الأخذ على يد كل مفسد يريد شق صف المسلمين والنيل من

دعاتهم وعلمائهم وفضلائهم، وفضحه بين الناس حتى يرتدع عن ضلاله، ويعود إلى رشده، وعدم السماح له بنشر ما تريده نفسه الأمارة بالسوء بين الناس.

٨- الجماعات الإسلامية صارت واقعاً لا يمكن تجاهله أو إلغاؤه، وكل جماعة لها وسائلها وغاياتها ومناهجها، والمطلوب إزاء اختلاف الجماعات العاملة على الساحة هو جمعها في جبهة واحدة، ولا بأس أن يكون لكل منها خصوصيتها التي تحافظ عليها، ورص صفوفها وتوجيه جهودها إلى هدف سام واحد، والابتعاد عن الحزبية التي تضر وتفرق، ولابأس بالحزبية بمعنى المحافظة على الخصوصية والمبادئ التي تراها كل جماعة نافعة لها بدون تنازع ولا خلاف مضر، إذ أن الخلاف المستحكم بينها اليوم أثر كثيراً على مسيرة الدعوة الإسلامية التي لا أظن أنه يكتب لها النجاح الكامل إلا بالاجتماع والاتفاق، خاصة أن هذا الخلاف قد حل محل الخلاف الذي كان شائعاً بين أسلافنا نصرة للمذاهب الفقهية، وتضخم ليكون أكبر عقبة أمام انتشار الإسلام في الخافقين، والله المستعان.

٩- حث أتباع الجماعات المختلفة على التعلق بالله تعالى وبمبادئ

الإسلام لا التعلق بالشخصيات أو الجماعات مهما بلغت منزلتها، فإن هذا التعلق القوي قد يقدح في مبدأ الولاء والبراء إذا تجاوز الحد أو صار تعصباً وانصرافاً عن الحق، لكن التعلق في حدود المشروع الذي لا يوصل إلى التقديس أو اعتقاد الحق لا بأس به إن شاء الله تعالى بل هو من جملة الوفاء ومراعاة العهود والذمم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب – أي تصير حزباً- فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون لهم مالهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم سواء كان على الحق والباطل فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله ﷺ فإن الله ورسوله ﷺ أمرا بالجماعة والائتلاف ونهيا عن الفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان»[1].

١٠- إشاعة أدب الحوار بين طبقات المثقفين والدعاة والعلماء

(١) «مجموع الفتاوى»: ١١/٩٢.

وطلبة العلم وكل من هو أهل للحوار حتى لا ينقلب الخلاف في وجهات النظر إلى اختلاف مفرق وتنازع مهلك ومذهب للشوكة.

١١- توجيه طلاب الدراسات العليا في الأقسام الشرعية والدعوية والاجتماعية والتربوية إلى إعداد بحوث تخدم هذه القضية وتعالجها معالجة نظرية جيدة، وتقترح طرقاً عملية مناسبة.

هذا والله تعالى المسؤول أن يرص صفوف المسلمين، ويجمع قادتهم وخاصتهم على الحق والخير، والله الموفق، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

المصادر والمراجع

١- الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، د محمد رزق، دار افريقيا الشرق.

٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الإمام الشوكاني، دار المعرفة.

٣- التاريخ الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، د. عبدالرحمن الحجي، دار الاعتصام، مصر، الطبعة الأولى.

٤- تحاسد العلماء، عبدالله بن حسين الوجان.

٥- رسائل الإمام البنا، الإمام حسن البنا

٦- الصفويون والدولة العثمانية، علوي عطرجي، دار الأندلس الخضراء.

٧- الصواعق المرسلة، ابن القيم

٨- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجيةمنهم، الشيخ عبدالقاهر البغدادي، دار الآفاق الجديدة.

٩- مجموع فتاوى ابن تيمية، ابن تيمية

١٠- المورد العذب الزلال، أحمد بن يحيى النجمي، مكتبة الفرقان.

١١- نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، للمؤلف، دار الأندلس الخضراء، جدة.

١٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، الشيخ أحمد المقري التلمساني، تحقيق يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت.

الفهرست

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٧
المبحث الأول: المآسي المترتبة على الخلاف المذهبي الفقهي.	١١
المبحث الثاني: المآسي المترتبة على الخلاف العقدي.	١٧
القسم الأول: الفرقة بين أهل السنة أنفسهم، ومنه:	١٧
١- الخلاف بين الحنابلة والأشاعرة.	١٧
٢- الخلاف بين أهل الحديث.	٢١
٣- الخلاف في العصر الحديث.	٢٢
القسم الثاني: الفرقة بين أهل السنة ومن سواهم، ومنه:	٢٩

الموضوع	رقم الصفحة
١- الخلاف بين أهل السنة والخوارج.	٢٩
٢- الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة.	٣٤
٣- الخلاف بين السنة والشيعة.	٣٥
المبحث الثالث: المآسي المترتبة على الفرقة في العصر الحديث من القسمين السابقين.	٤٣
المبحث الرابع: المآسي المترتبة على الفرقة السياسية.	٥١
الافتراق السياسي في العصر الحديث.	٦١
الخاتمة والنتائج	٦٥
التوصيات	٦٩
المصادر والمراجع	٧٥
الفهرست	٧٧



إن قضية الافتراق قضية مؤرقة، مؤلمة مقلقة، تفصم العروة الوثقى، وتهدم الآمال العظمى، مرض مهلك، ومسلك مربك، والتاريخ شاهد على ذلك.

في هذا الكتاب عرض للوقائع التاريخية المعاصرة التي ابتلينا فيها بالافتراق على جميع المستويات فقهيا وعقديا وسياسيا مع ذكر المآسي المحزنة المترتبة على ذلك لعلها توقظ الضمائر وتهز المشاعر لنشد العزم حتى نخرج من هذا التيه ونعود للألفة بعد الفرقة.

